العدول في حروف الجر
دراسة تطبيقية على سورة التوبة

الباحثة/ أمل بنت مقبول البلادي

غالباً ما تشكِّلُ هذه الحروفُ السوادَ الأعظمَ في النُّصوصِ اللغوية؛ وذلك لِما تؤديه من وظيفةٍ دِلاليةٍ مهمةٍ، تتمثلُ في تقويةِ الفعلِ لإيصالِ معناه إلى الاسم "،فإن قيل: فإذا قلتم: إن هذه الحروف إنما أُتي بها لإيصال معاني الأفعال إلى الأسماء، فما بالهم يقولون: "زيدٌ في الدار"، والمال لخالدٍ" فجيء بهذه الحروف، ولا فعلَ قبلها؟ فالجواب أنه ليس في الكلام حرفُ جر إلَّا وهو متعلّقٌ بفعل، أو ما هو بمعنى الفعل في اللفظ أو التقدير. أمّا اللفظ، فقولك: "انصرفت عن زيد"، و"ذهبت إلى بكرٍ"، فالحرف الذي هو "إلى" متعلّقٌ بالفعل الذي قبله. وأمّا تعلُّقه بالفعل في المعنى، فنحو قولك: "المالُ لزيد"، تقديرُه: المال حاصلٌ لزيد"[1].

ويُطلَقُ عليها حروفُ الإضافة؛ لأنها تُضيفُ معاني الأفعال التي قبلها إلى ما بعدها من الأسماءِ،وحروفُ الصفات؛ لأنها تقع وصفاً لما قبلها من الأسماء وأدوات المعاني.

ومن حروف الجر ما استُعمِل حرفاً–فقط–، وهي: إلى، في، حتى، من، الباء، اللام، واو القسم وتاؤه. ومنها ما هو مشترك بين الحرفية والاسمية، وهي:على، الكاف، مذ، منذ، عن[2].

ومنها ما يتراوح بين الحرفية والفعلية، وهي: خلا، عدا[3]، حاشا[4]. ولكلٍّ منها معناه الخاص الذي لا يتأتَّى بغيره.

١– شرح المفصل، لابن يعيش ٥/٤٥٦

٢– تكون اسماً – بمعنى جانب – إذا سبقت بحرف جر، ولا يدخل عليها سوى الحرف (من)، ومنه قول الشاعر:

فَقلْت للرَّكبِ لمَّا أنْ علا بِهمُ   منْ عَنْ يمينِ الحُبَيَّا نظرةٌ قَبَلُ (الجنى الداني، للمرادي:٢٤٢–٢٤٣)

٣– شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٢/٢٣٧

٤– المشهور أنها حرف، ورأى الأخفش والجرمي والمازني والمبرد أنها مثل خلا، فتكون حرفاً وتجر ما بعدها، وقد تكون فعلاً فتنصب ما بعدها. انظر(شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٢/٢٣٨)

وقد تخرج هذه الحروفُ والأدواتُ عن معناها الأصلي إلى معنى آخر، فتتضمن معنىً غير معناها،كقول الله –تعالى–: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه:٧١]،أي: على جذوع النخل، فنلحظُ مجيءَ (في) بمعنى (على). وقد استوقفت هذه الآيةُ ومثيلاتُها النحاةَ كثيراً،فانقسموا إلى فريقين، فرأى أكثرُ البصريين أنَّ حرفَ الجر ليس له إلا معنىً حقيقي واحد، وما يُتَوهم فيه غيرُ ذلك خُرِّجَ على القولِ بالمجازِ، أو التضمينِ، أو النيابةِ شذوذاً. فحرفُ الجرِّ (في) ليس له إلا معنىً حقيقيٌّ واحدٌ، وهو معنى الظرفية، وحرفُ الجرِّ (على) ليس له إلا معنىً حقيقيٌّ واحدٌ وهو الاستعلاء،و(إلى) ليس لها إلا معنىً حقيقيٌّ واحدٌ وهو الانتهاء، و(من) ليس لها إلا معنىً حقيقيٌّ واحدٌ وهو الابتداء وهكذا[١]...

وقال ابن جني في باب (استعمال الحروف بعضها في مكان بعض): "هذا باب يتلقاه الناس مغسولًا ساذجًا من الصنعة، وما أبعد الصواب عنه وأوقفه دونه"[٢]، أي: أنه يستحقُّ الغَسلَ لما اعتراه من تفاهةٍ وسذاجةٍ وبعدٍ عن الصواب، ثم قال شارحاً: "ذلك أنهم يقولون: إن "إلى " تكون بمعنى مع. ويحتجّون لذلك بقول الله –سبحانه–: {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ}[٣]،أي: مع الله"[٤]، ويرفض ابن جني أن يفتح الباب على مصراعيه في هذه المسألة، فقال: "ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا، لكنا نقول: إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع على حسب الأحوال٢ الداعية إليه، والمسوغة له، فأما في كلّ موضع وعلى كلّ حال فلا، ألا ترى أنك٤ إن أخذت بظاهر هذا القول غفلًا هكذا، لا مقيّدًا لزمك عليه أن تقول: سرت إلى زيد، وأنت تريد: معه، وأن تقول: زيد في الفرس، وأنت تريد: عليه، وزيد في عمرو، وأنت تريد: عليه في العداوة، وأن تقول: رويت الحديث بزيد، وأنت تريد: عنه، ونحو ذلك مما يطول ويتفاحش"[٥]، والقول الفصل عنده في هذه المسألة : "اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدَّى بحرف والآخر بآخر، فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه؛ إيذانًا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو

١– انظر حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك ٣١٢/٢

٢– الخصائص ٣٠٨/٢

٣– سورة الصف / ١٤

٤– الخصائص ٣٠٩/٢

٥– نفس المصدر، ونفس الجزء، صـــ ٣١٠

في معناه. وذلك كقول الله –عز اسمه–: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ}وأنت لا تقول: رفثت إلى المرأة، وإنما تقول: رفثت بها أو معها، لكنه لما كان الرفث –هنا– في معنى الإفضاء، وكنت تعدي أفضيت بـــ"إلى" كقولك: أفضيت إلى المرأة، جئت بـــ"إلى" مع الرفث؛ إيذانًا وإشعارًا أنه بمعناه"[1].

أما أكثرُ الكوفيين[2] فقد توسّعوا في هذا الأمر، ورأوا أخذَ اللغةِ بظاهرِها،فقالوا: بجوازِ خروجِ الأداةِ عن معناها إلى معنىً آخر حقيقةً وليس مجازاً،وتابعَهم على ذلك جمعٌ من النحاةِ كابنِ هشام الذي نلحظُ في كلامِه ميلاً إلى المذهبِ الكوفي، إذْ قال: " مَذْهَب الْبَصريين أَن حروف الْجَرّ لَا يَنُوب بَعْضهَا عَن بعض بِقيَاس كَمَا أَن أحرف الْجَزْم وأحرف النصب كَذَلِك، وَمَا أوهم ذَلِك فَهُوَ عِنْدهم إِمَّا مؤولٌ تَأْوِيلاً يقبله اللَّفْظ، كَمَا قيل فِي {ولأصلبنكم فِي جُذُوع النّخل}[3]: إِن فِي لَيست بِمَعْنى على، وَلَكِن شبه المصلوب لتمكنه من الْجذع بِالْحَال فِي الشَّيْء، وَإِمَّا على تضمين الْفِعْل معنى فعل يتَعَدَّى بذلك الْحَرْف، كَمَا ضمن بَعضهم شربن فِي قَوْله:

١٧٥ – (شربن بِمَاء الْبَحْر ...)[4]

معنى روين وَأحسن فِي {وَقد أحسن بِي} معنى لطف، وَإِمَّا على شذوذ إنابة كلمة عَن أُخْرَى، وَهَذَا الْأَخير هُوَ مُجمل الْبَاب كُلّه عِنْد أَكثر الْكُوفِيّين وَبَعض الْمُتَأَخِّرين، وَلَا يجْعَلُونَ ذَلِك شاذاً، ومذهبهم أقل تعسفاً"[5].

والعلةُ في هذا كلِّه ربما ترجعُ إلى السياق،فالمسألةُ سياقيَّةٌ معنويَّةٌ دلاليَّةٌ أكثرُ من كونها مسألةً نحوية،فمتى ما ارتأينا تقاربَ الحرفين المتناوبين في المعنى، وصحة المعنى بعد التناوب قلنا به. أما إذا أحسسنا بسقامةِ المعنى وخللِه فنقولُ بالتضمين،وقال ابن السراج: "واعلم أنَّ العربَ تتسعُ فيها، فتقيمُ بعضَها مقامَ بعض؛ إذا تقاربت المعاني،

١– المصدر السابق، الصفحة نفسها.

٢-قلت:"أكثرُ البصريين"؛ لأنَّ المبردَ البصري رأى رأيَ الكوفيين، وقال بتعدد معنى الحرف الواحد حقيقة. (الكامل في اللغة والأدب:٣/٧٤) . و "أكثرُ الكوفيين"؛ لأن الفراء الكوفي قال بالتضمين ومجازية المعاني المتعددة؛ موافقاً الـــرأي البـــصري. (معاني القرآن:١/٢١٨).

٣– سورة طه / ٧١

٤– البيت لأبي ذؤيب الهذلي, وتمامه: شربن بماء البحر ثم ترفعتمتى لججٍ خضرٍ لهن نئيج (سر صناعة الإعراب, لابـــن جني ١/١٤٦)

٥– مغني اللبيب عن كتب لابن هشام،صـــ١٥١

فمن ذلك: الباء تقول: فلان بمكة وفي مكة، وإنما جازا معًا؛ لأنك إذا قلت: فلان بموضع كذا وكذا، فقد خبرت عن اتصاله والتصاقه بذلك الموضع، وإذا قلت: في موضع كذا، فقد خبرت "بفي" عن احتوائه إياه وإحاطته به، فإذا تقارب الحرفان فإن هذا التقارب يصلح لمعاقبة، وإذا تباين معناهما لم يجز، ألا ترى أن رجلًا لو قال: مررت في زيد أو: كتبت إلى القلم، لم يكن هذا يلتبس به، فهذا حقيقة تعاقب حروف الخفض"[1].

وعلى كلٍّ فالمسألةُ سماعيَّة، ولم يقلْ أيٌّ من نحاةِ الفريقَين بقياسيَّتِها، واختلافُهما في تفسيرها نابعٌ عن اختلافِهما في فهمِ اللغةِ، وتحديدِ الأهمِّ فالمهم، والأصلِ وما دونه في السياق.

والعدولُ في حروف الجرِّ إمَّا أنْ يكونَ عن طريق عدول أدواتها عن معناها إلى معنى آخر,أوالتضمين، أو التغاير فيما بين حروف الجر في السياق الواحد أو السياقات المتشابهة.

أولاً: العدول عن معناها إلى معنى آخر:

١- إلى:

وهي لمعنى انتهاءِ الغاية الزمانيةِ أو المكانية، وهذا أصلُ معانيها[2] وأشهرُها وأكثرُها استعمالاً. وانتهاءُ الغايةِ الزمانية، كقولك: هطل المطرُ من الصباحِ إلى المساء.والمكانية، كأن تقول: سِرْتُ إلى مدينةِ الرسولِ- صلى اللهُ عليه وسلَّم-. وقد خرجت (إلى) إلى عدةِ معانٍ أخرى،وهي: مجيئُها بمعنى (مع)، كما جاء في قوله -تعالى-: {مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ} [الصف:١٤]،أي: مع الله،ومع دلالة (إلى) على معنى (مع)[3] إلا أنَّ في الآية دلالةً هامسةً بأنَّ اللهَ هو ملجؤهم ومنتهاهم وإليه يصيرون، ولا يُستَشفُ هذا المعنى فيما لو جاءت الآيةُ بـــ (مع). وجاءت (إلى) كذلك بمعنى التبيين، وهي التي تأتي مع تعجب أو تفضيل، كأن تقول: ما أحوجني إلى رحمة الله. وخرجت إلى معنى (في)، كما قال -تعالى-: {لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا}[النساء:٨٧]، ومعنى اللام ومعنى عند، كما قال الشاعر:

١- الأصول لابن السرَّاج ١/٤١٤-٤١٥

٢- الجنى الداني للمرادي صـــ٣٨٥

٣- الدر المصون للحلبي ١٠-٣٢٤

أم لا سبيلَ إلى الشبابِ وذكرِه أشهى إلي من الرَّحيقِ السَّلسلِ[1]

أي: أشهى عندي.

وجاءت كذلك بمعنى (مِن) إلى جانبِ مجيئِها زائدةً[2] غير مفيدةٍ معنى في الجملة.

وحاولت حصرَ معاني (إلى) الخارجة عن أصلِها في سورة التوبة، فكانت كالتالي:

قوله –تعالى–: {يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ} [التوبة:٩٤].

جاءت (إلى) بمعنى (اللام)، أي: يعتذرون لكم، ومعناها –هنا– الاختصاص.

وقوله –تعالى–: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُون} [التوبة:١٢٥].

المقصودُ رجساً مع رجسهم.قال الفراء: "وإنما يجوز أن تجعل (إلى) موضع (مع) إذا ضممت الشيء إلى الشيء مما لم يكن معه، كقول العرب: إن الذود إلى الذود إبل، أي: إذا ضممت الذود إلى الذود صارت إبلاً. فإذا كان الشيء مع الشيء لم تصلح مكان مع إلى، ألا ترى أنك تقول: قدم فلان ومعه مال كثير، ولا تقول في هذا الموضع: قدم فلان وإليه مال كثير. وكذلك تقول: قدم فلان إلى أهله، ولا تقول: مع أهله، ومنه قوله: وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ[3] «١» معناه: ولا تضيفوا أموالهم إلى أموالكم."[4]. ونفهمُ من كلام الفراء أن موافقة (إلى) لـــ (مع) يكون في حدود معنى ضم الشيء إلى الشيء –فقط–، ولا يشمل المعاني الأخرى لـــ(مع).

وخرجت (إلى) إلى معنى التبيين في قوله –تعالى–: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ}[التوبة:٢٤]"قال ابن مالك: وهي المتُعلقة في تعجب أو تفضيل بحب أو بغض،مبينة لفاعلية مصحوبها، كقوله –تعالى–: {قَالَ رَبِّ السجن أحبّ إلي}[5]"[6].

١– البيت لأبي كبير الهذلي، خزانة الأدب، للبغدادي ٥٣٧/٩

٢– وهذا الوجه قاله الفراء مستدلاً عليه بقوله –تعالى–: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} [إبـــراهيم:٣٧]، أي: تريـــدهم (معاني القرآن ٨٧/٢).

٣– سورة النساء / ٢

٤– معاني القرآن، صـــ٢١٨

٥– سورة يوسف / ٣٣

٦– البرهان في علوم القرآن، للزركشي ٢٣٣/٤–٢٣٤

وفي قوله –تعالى–: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ}[التوبة:٣٨].

فإنَّ تعديةَ الفعلِ بإلى في قوله: (اثاقلتم إلى الأرض) تُؤَوَّلُ حَسْب المعنى إلى أمرين: أحدُهُما: نيابةُ(إلى) منابَ(عن) في المعنى، والتقدير: تثاقلتم عن الأرض، وذلك إذا كان المقصود أنكم تكاسلتم لما نادى المنادي للجهاد. قال صاحب العين: "كَسِلَ [يكْسَلُ] كَسَلاً ..... تثاقل عما لا ينبغي"[١].

والآخر: تضمين اثاقلتم معنى ملتم، فتكون تعدية الفعل بإلى صحيحة.

وقوله –تعالى–: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُون}[التوبة:٥٩] نابت (إلى) مناب (في) والتقدير: إنا في الله راغبون، وجاء في الجمهرة: "رغبت فِي الشَّيْء رَغْباً ورَغْبة ورُغْبى إِذا ملت إِلَيْهِ"[٢].

٢– من:

وهي أمُّ حروف الجر، ولها أربعةَ عشرَ معنى، منها معنيان أصليَّان، وهما:

١–ابتداء الغاية:

اتفقَ كافةُ النُّحاةِ على دلالةِ (من) على ابتداءِ الغايةِ المكانية، وما أُنزِل بمنزلتها من الأحداث والأشخاص، كأنْ تقولُ: سِرتُ من البصرةِ إلى الكوفة،"وتقول إذا كتبت كتاباً: من فلان إلى فلان. فهذه الأسماء سوى الأماكن بمنزلتها"[٣]. ورأى الكوفيون جوازَ استعمالها في الزمان[٤]،كقوله –تعالى–:{لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ}[التوبة:١٠٨]،ووافقَهم على ذلك المبرِّدُ وابنُ درستويه[٥]، وصحَّحَه ابنُ مالك لكثرةِ شواهده[٦]. ومَنَعَ البصريون ذلك، وتأوَّلُوا ما وردَ منه في القرآن والشعر،فقوله –تعالى–:{لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ}أُوِّلَ على تقديرِ مصدرٍ محذوف، أي: من تأسيس أول يوم. وقول الشاعر:

١– معجم العين، للخليل ٣١٠/٥

٢– جمهرة اللغة، لابن دريد ٣٢٠/١

٣– الكتاب، لسيبويه ٢٢٤/٤

٤– الجنى الداني، للمرادي، صـــ٣٠٨

٥-شرح المفصل، لابن يعيش ٤٥٩/٤

٦– الجنى الداني، للمرادي، صـــ٣٠٩

لِمَنِ الديارُ بقُنّةِ الحِجْرِ أَقْوَيْنَ مِن حِجَجٍ ومِن دَهْرِ[1]

أي: من مرّ حجج ومرّ دهر[2].

واعترض ابنُ يعيش على هذين التقديرين؛لأنَّ التأسيسَ والمرَّ مصادر، ولا يخفى علينا مشابهة المصادر للأزمنة في كونها منقضيةٌ مثلها[3].

وقال السهيلي: "لَيْسَ يَحْتَاجُ فِي قَوْلِه: {مِنْ أَوّلِ يَوْمٍ} إلَى إضْمَارِ كَمَا قَرّرَهُ بَعْضُ النّحَاةِ مِنْ تَأْسِيسِ أَوّلِ يَوْمٍ؛ فِرَارًا مِنْ دُخُولِ مِنْ عَلَى الزّمَانِ، وَلَوْ لَفَظَ بِالتّأْسِيسِ لَكَانَ مَعْنَاهُ مِنْ وَقْتِ تَأْسِيسِ أَوّلِ يَوْمٍ، فَإِضْمَارُهُ لِلتّأْسِيسِ لَا يُفِيدُ شَيْئًا، وَمِنْ تَدْخُلُ عَلَى الزّمَانِ وَغَيْرِهِ، فَفِي التّنْزِيلِ {مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ}[4] [الرّوم: ٤] وَالْقَبْلُ وَالْبَعْدُ زَمَانٌ، وَفِي الْحَدِيثِ مَا مِنْ دَابّةٍ إلّا وَهِيَ مُصِيخَةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ حِينِ تَطْلُعُ الشّمْسُ إلَى أَنْ تَغْرُبَ، وَفِي شِعْرِ النّابِغَةِ [فِي وَصْفِ سُيُوفٍ] :

تُوُرّثْنَ مِنْ أَزْمَانِ يَوْمِ حَلِيمَةَ ... إلَى الْيَوْمِ قَدْ جَرّبْنَ كُلّ التّجَارِبِ"[5][6]

ورأى ابن أبي الربيع بأنَّ الخلافَ فيما يصحُّ فيه دخولُ (منذ)، كما في قوله: من أول يوم، أما ما لا يصح فيه دخول (منذ)، كقوله: من قبل وبعد، فلا خلاف فيه[7].

٢-المعنى الثاني منَ المعاني الأصلية لـــ (من) هو التبعيض، كقوله -تعالى-: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ} [التوبة:٦]، وعلامتُه صلاحيَّةُ مجيء (بعض) مكانها. ورأى المبردُ أنَّ من التبعيضية في الأصل لابتداء الغاية، فقال: "كونهُا فِي التَّبْعِيض راجعٌ إلى هَذَا وَذَاكَ أَنَّك تَقول: أَخذت مَال زيد، فإِذا أَردت الْبَعْض، قلت: أَخذت من مَاله، فإِنَّما رجعت بهَا إِلى ابْتِدَاء الْغَايَة"[8].

أمَّا المعاني المحمولةُ على هذين المعنيين، فهي كالتالي:

١-بيانُ الجنس، كقوله -تعالى-: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ} [الحج:٣٠].

١- البيت لزهير بن أبي سلمى، خزانة الأدب، للبغدادي ٤٣٩/٩

٢- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ٢٦١/٨

٣- شرح المفصل ٤٥٩/٤

٤- تمَّ تخريجها في مصدرها

٥- تمَّ توثيقه في مصدره

٦- الروض الآنف ١٥٦/٤

٧- الجنى الداني، للمرادي، صـــ٣٠٩

٨- المقتضب ٤٤/١

٢-التعليل، كقوله -تعالى-: { يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ}[البقرة:١٩].

٣-البدل، كقوله -تعالى-: {أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ} [التوبة:٣٨].

٤-المجاوزة، كقوله -تعالى-: {الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} [قريش:٤].

٥-الغاية،وأشار إليه سيبويه بقوله: "تقول رأيته من ذلك الموضع ، وتجعله غاية رؤيتك ، كما جعلته غاية حين أردت الابتداء"[١].

٦-الاستعلاء كقوله -تعالى-: {وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}[الأنبياء:٧٧].

٧-الفصل، كقوله -تعالى-: {وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} [البقرة:٢٢٠].

٨- موافقة الباء، كقوله -تعالى-:{ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ}[الشورى:٤٥]، أي: بطرف خفي.

٩-أن تكون موافقة لرُبَّ إذا اتصلت بما، وقاله السيرافي[٢] مستشهداً بقول الشاعر:

وَإِنَّا لَمِمَّا نَضْرِبُ الْكَبْشَ ضَرْبَةًعلى رَأسِهِ تُلْقِي اللِّسَانَ من الْفَمِ[٣]

١٠-أن تكون موافقة للقسم، بشرط ألا تدخل إلا على (الرَّب)، كقولهم: من ربي لأفعلن-بكسر الميم وضمها-[٤]. قال سيبويه: "واعلم أنَّ من العرب من يقول: من ربيِّ لأفعلنَّ ذلك، ومن ربيِّ إنَّك لأشرٌ، يجعلها في هذا الموضع بمنزلة الواو والباء، في قوله: والله لأفعلنَّ. ولا يدخلونها في غير ربيِّ"[٥].

١١- الزائدة، ولا تُزَادُ عند سيبويه والبصريين إلا بشرطين:

١. أن يكون ما قبلها غير موجب: (نفي،نهي،استفهام).

٢. أن يكون مجرورُها نكرة، واقتصرَ الكوفيون على هذا الشرط -فقط-[٦].

وسأستعرضُ فيما يلي ما خَرَجَ إلى هذه المعاني من سورةِ التَّوبة.

١- الكتاب ٢٢٥/٤

٢- المغني، لابن هشام، صـــ٤٢٤

٣- البيت لأبي حية النميري ، أمالي ابن الشجري ٥٦٦/٢-٥٦٧

٤- وقيل: إنه اسم وهو بقية (أيمن)؛ لكثرة تصرفهم فيها، ورُدَّ على ذلك بشيئين، وهما: ١/ أن (من) تختص بالدخول على (الرب)، وأيمن لا تدخل عليه. ٢/أنَّ (من) مبنية، و(أيمن) اسم معرب، وحذف شيء منه لا يزيل عنه الإعراب. (الجنى الداني، للمرادي، صـــ٣٢١)، (شرح المفصل، لابن يعيش ٤٩٤/٤).

٥- الكتاب ٤٩٩/٣

٦- الجنى الداني، للمرادي، صـــ٣١٧-٣١٨

١. ما جاء بمعنى ابتداء الغاية الزمانية:

قوله –تعالى–: {لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ} [التوبة:١٠٨].

جاءت (من) بمعنى ابتداءِ الغايةِ الزمانية، وهذا ممنوعٌ عند سيبويه وجمهور البصريين، فتأوَّلوا هذا الخروجَ بتقديرِ مضافٍ محذوف، أي: من تأسيس أول يوم[١].ورأى ابن عطية أن (من) يجوز أن تجر لفظ (أول)؛ لأنها بمعنى البداءة[٢].

ومجيء (من) مع قبل وبعد تدلَّ على الزمان، فتكون خرجت عن الأصل على الرأي البصري؛ ورأى ابن أبي الربيع بأنه لا خلاف فيها؛ لأن (منذ) غير صالحة في هذا الموضع، والخلاف يقع فيما يصح أن تقع (منذ) موضعه[٣]، كما في قوله –تعالى–: من أول يوم.

وجاءت (من) مع قبل وبعد في سورة التوبة في الآيات التالية:

{وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ}[التوبة:١٢]،وقوله:{يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُون}[التوبة:٣٠]،وقوله –تعالى–:{لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ} [التوبة:٤٨]،وقوله –تعالى–: {قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ}[التوبة:٥٠]، وقوله –تعالى–:{كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ}[التوبة:٦٩]، وقوله –تعالى–:{كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ}[التوبة:٦٩]، وقوله –تعالى–: {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}[التوبة:٧٠]، وقوله –تعالى–: {مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}[التوبة:١١٣]،وقوله –تعالى–: {مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ}[التوبة:١١٧].

٢. ما جاء بمعنى بيان الجنس:

ويراها سيبويه فرعاً عن التبعيضية[٤]، وعلامتُها صحةُ مجيءِ الاسمِ الموصولِ مكانها[٥]، ومما جاء منها في سورة التوبة:

قوله –تعالى–: {إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِين}[التوبة:١]، أي: الذين هم مشركون.

١– الإنصاف في مسائل الخلاف، لأبي بركات الأنباري ٣٠٦/١

٢– البحر المحيط،لأبي حيَّان ٥٠٤/٥

٣– الجنى الداني، للمرادي، صـــ٣٠٩

٤ – الكتاب، لسيبويه ٢٢٥/٤

٥– الجنى الداني، للمرادي، صـــ٣١٠

وقوله –تعالى–: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ}[التوبة:٢٩]،أي: الذين اتصفوا بهذه الأوصاف هم أهلُ الكتاب، فيصحُّ مجيءُ ما بعدَها خبراً عما قبلها.

وقوله –تعالى–: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ}[التوبة:٣٤]، أي: من جنسِ الأحبارِ والرهبان.

وقوله –تعالى–: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ}[التوبة:٦٧]،أي: بعضهم من جنسِ بعض.

وقوله –تعالى–: {مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ} [التوبة:١٢٠]، أي: من جنس الأعراب.

وقوله –تعالى–: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ} [التوبة:١٢٣]، أي: الذين هم الكفار.

٣. ما جاء بمعنى المجاوزة:

قال –تعالى–: {قَدْ نَبَّأَنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ}[التوبة:٩٤]

أي: عن أخباركم.

أمَّا (من) الداخلة على المفضل عليه فقد اختلف فيها النُّحاة،فرأى سيبويه أنَّها بمعنى ابتداء الغاية، ولا تخلو من التبعيض، فقال: "وكذلك: هو أفضل من زيد، إنما أراد أن يفضله على بعضٍ ولا يعم. وجعل زيداً الموضع الذي ارتفع منه أو سفل منه في قولك: شرٌّ من زيدٍ"[١]. ورأى المبرد[٢] وجماعة[٣] أنَّها بمعنى ابتداء الغاية، وتخلو من التبعيض. أمَّا ابن مالك فرأى أنَّها بمعنى المجاوزة، فعندما تقول: زيد أفضل من عمرو، تكون بمعنى جاوزَ زيدٌ عَمْراً بالفضل[٤]،وجاءت في سورة التوبة في الآيات الآتية:

١– الكتاب ٢٢٥/٤

٢– المقتضب ٤٤/١

٣– الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي، صـــ٣١٢

٤– شرح التسهيل ١٣٥/٣

قوله –تعالى–: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ}[التوبة:٢٤]في قوله: من الله.

وقوله: {كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً}[التوبة:٩٥] في قوله: منكم.

وقوله –تعالى–:{وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ}[التوبة:١١١]

في قوله: من الله.

٤. ما جاء بمعنى البدل:

وعلامته صحة وقوع (بدل) موقع (من)، وجاءت في سورة التوبة في قوله –تعالى–: {أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ}[التوبة:٣٨]،أي: بدل الآخرة. ومنه قول الشاعر:

فليتَ لنا مِنْ ماءِ زمزَمَ شَرْبَةً مُبَرَّدَةً باتَتْ على طَهَيانِ[١]

أي: بدل ماء زمزم.

٥. ما جاء زائداً:

واشترط البصريون في (مِنْ) المزيدة أن يكون ما قبلها غير موجب: (نفي،نهي،استفهام)، وأن يكون مدخولها نكرة، واقتصر الكوفيون على الشرط الثاني –فقط–[٢]. ووردت من الزائدة في موضعين من سورة التوبة، هما:

قوله –تعالى–: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ}[التوبة:٩١]، وقوله –تعالى–: {هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ}[التوبة:١٢٧].

وقد تحقق الشرطان بأن يكون ما قبلها غير موجب–نفي في الآية الأولى، واستفهام في الثانية– ،وما بعدها نكرة.

٣– الباء:

ولها معنىً أصليٌّ هو الإلصاق، واقتصرَ عليه سيبويه ولم يذكرْ غيرَه [٣]. والإلصاقُ إمَّا أنْ يكونَ حقيقياً، كقولك: أمسكتُ بالورقة، أو مجازياً، كقولك: مررتُ

١– خزانة الأدب، للبغدادي ٢٠٠/٨

٢– الجنى الداني، للمرادي، صـــ٣١٧–٣١٨

٣– الكتاب ٤١٩/١

بك. وقد تأتي الباءُ–كذلك–بمعنى الاستعانة نحو: كتبتُ بالقلم، ومعنى السببية، كقول الله –تعالى–:{فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ} [العنكبوت:٤٠]. وعبَّر المرادي عن معنى السببية بالتعليل[١]، وجعلها نائبة عن لام التعليل، مستشهداً بقول ابن مالك: "هي التي يصلح –غالباً– في موضعها اللام"[٢]،وبقوله –تعالى–:{إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ} [البقرة:٥٤]. ولها –كذلك– معنى التعدية،وهي العاملةُ عملَ همزة التعدية،كما قال –تعالى–: {ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ} [البقرة:١٧]، أي: أذهبه. ومعنى (من) التبعيضية، وقاله الكوفيون، وتبعهم الأصمعي، والفارسي، وابن قتيبة، وابن مالك[٣] محتجين بقوله –تعالى–: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} [الإنسان:٦]، أي: منها. ومعنى التعويض كأن تقول: بعتك هذا بهذا، وكذلك معنى (عن) المجاوزة، كقوله –تعالى–: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}[المعارج:١]،أي: عن عذاب واقع. و(مع) المصاحبة، كقوله –تعالى–:{يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ} [النساء:١٧٠]، أي: مع الحق أو محقاً. و(في) للظرفيَّة المكانيَّة والزمانيَّة، كقوله –تعالى–: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ} [آل عمران:١٢٣].و(على) الاستعلائية،كقوله –تعالى–: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ}[آل عمران:٧٥]، أي: على قنطار ،ومعنى إلى، والقسم، والبدلية.

وقد تأتي الباء زائدة للتوكيد متصلة بالفاعل، كقوله –تعالى–: {وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا}[النساء:٧٩]، أو المفعول به:{وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}[البقرة:١٩٥]،أو المبتدأ، كقولك: بحسبك درهم، وقال ابن يعيش: "ولا يُعْلَم مبتدأ دخل عليه حرفُ جر في الإيجاب غيرُ هذا الحرف"[٤].

أو الخبر قياساً في خبر ليس وما، قال –تعالى–: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر:٣٦]، وقوله: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ}[فصلت:٤٦].

ومع النفس والعين لغرض التوكيد، كقولك: جاء بنفسه

وسأعرض –الآن–مواضع العدول في استعمال الباء في سورة التوبة:

١– المصدر السابق، صـــ٣٩

٢– شرح التسهيل ١٥٠/٣

٣– شرح الكافية الشافية لابن مالك ٨٠٧/٢، الهمع، للسيوطي ٤١٨/٢–٤١٩

٤– شرح المفصل، لابن يعيش ٤٧٧/٤

١. العدول إلى معنى التعدية:

والباءُ في هذا الموضعِ نظيرةٌ لهمزةِ التعدية، ووردَت في سورةِ التوبةِ كما يلي: قال –تعالى–: {شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ}[التوبة:١٧]، وقوله –تعالى–: {مَنْ آمَنَ بِاللّهِ}[التوبة:١٨]،وقوله: { كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ }[التوبة:١٩]،وقوله –تعالى–: {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ}[التوبة:٢١]، وقوله –تعالى–: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ}[التوبة:٢٩]،وقوله: {وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا}[التوبة:٤٠]،وقوله: {لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}[التوبة:٤٤]، وقوله: {وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}[التوبة:٤٤]، وقوله –تعالى–: {إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}[التوبة:٤٥]، وقوله –تعالى–:{وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}[التوبة:٤٧]، والباءات في قوله –تعالى–: {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ}[التوبة:٥٢]،وقوله: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ}[التوبة:٥٤]، وقوله: {يُؤْمِنُ بِاللّهِ}[التوبة:٦١]، وقوله: {قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ}[التوبة:٦٥]، وقوله –تعالى–: {يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ}[التوبة:٦٧]، والباءات في قوله –تعالى–: {فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ}[التوبة:٦٩]،وقوله: {يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}[التوبة:٧١]، وقوله –تعالى–: {وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا}[التوبة:٧٤]، وقوله –تعالى–: {فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ}[التوبة:٧٦]، وقوله: {إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ}[التوبة:٨٣]، وقوله: {إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ}[التوبة:٨٤]، وقوله: {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ}[التوبة:٩٩]،وقوله: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ}[التوبة:١٠٢]، وقوله –تعالى–: {فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ} [التوبة:١١١]،وقوله: {الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ} [التوبة :١١٢]، وقوله: {وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ}[التوبة:١٢٠].

٢. العدول إلى معنى السببية:

وهي التي يكونُ ما بعدها سبباً لما قبلها، وممَّا جَاءَ من ذلك في سورة التوبة:
قوله –تعالى–: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ} [التوبة:٦] في قوله: (بأنهم قوم لا يعلمون)،أي: إن استجاروك وأقاموا في جوارك فلا تعرض عنهم وأسمعهم كلام الله –تعالى–ولا

تؤاخذهم بما صدر منهم في هذا الوقت؛ لأنهم قوم لا يعلمون. وقوله: {لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ} [التوبة:٦٦]، أي: إن عفونا عمَّن يستحقُّ العفو، فسنعذِّبُ البقيَّةَ لإجرامهم. والباءات في قوله –تعالى–: {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُون}[التوبة:٧٧]، أي: لكذبهم وإخلافهم الوعدَ مع الله. وقوله –تعالى–: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِين} [التوبة:٨٠]، أي: أنَّ اللهَ لنْ يغفرَ لهم بسببِ كفرِهم. وقوله: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ} [التوبة:٨١]،أي: فرحوا بسبب تخلفهم عن الغزو. وقوله: {فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُون} [التوبة:٨٢]، أي: ليضحكوا في الدنيا قليلاً وليبكوا في الآخرة كثيراً بسبب ما عَملوه. وقوله –تعالى–: {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُون} [التوبة:٩٥]، أي: بسببِ ما عَملوه.وقوله: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون}[التوبة:١٢٧]أي: إذا نزلَت سورةٌ تفضحُ نفاقَهم فأقصى ما يفعلونه هو النَّظرَ إلى بعضِهم في حالِ تعجُّبٍ ودهشة، ومن ثمَّ الانصراف، فلا يعتبرون ممَّا في القرآن من كشفِ ما أخفوه فيؤمنوا؛ وذلك لأنَّ اللهَ صَرَفَ قلوبَهم عن رؤيةِ الحق.

٣. العدول إلى معنى الاستعانة:

وهي الباءُ الدَّاخلةُ على آلةِ الفعل. وأدرجَها ابنُ مالك ضمنَ السببية، فقال: "وأمَّا السببيةُ فهي الداخلةُ على صالحٍ للاستغناءِ به عن فاعل مُعَدّاها مَجَازا"[١] . ثم قال: "ومنه كتبت بالقلم، وقطعت بالسكين، فإنَّه يصح أن يقال: كتب القلم، وقطع السكين"[٢].وقد عَدَلَ ابنُ مالكٍ إلى تَسميتِها بالسببية؛ لأنَّ الأفعالَ المنسوبة إلى الله –تعالى– لا يجوز التعبير عنها بالاستعانة بل السببية–حَسْبَ قوله–[٣]، فقوله –تعالى–: {فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ}[البقرة:٢٢]فالله –تعالى– أنزل المطر، ثم أخرج هذا المطر نبات الأرض، فكان سبباً له.

١– شرح التسهيل، لابن مالك ١٤٩/٣–١٥٠

٢– المصدر السابق ١٥٠/٣

٣– المصدر السَّابق، الموضع نفسه.

وجاءت هذه الباء في سورة التوبة كالتالي:

قوله –تعالى–: {يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ}[التوبة:٨]، أي: أنَّ وسيلةَ رضاكم هي أفواههم.

وقوله –تعالى–:{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ}[التوبة:١٤]،وقوله:{وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ}[التوبة:٢٠]، وقول الله –تعالى–: {ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ}[التوبة:٣٠]، وقوله: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ}[التوبة:٣٢]،وأمَّا قولُه:{وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ٣٤يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ٣٥}فإن كانت الهاء عائدة على الكنوز فالباءُ للاستعانة، أمَّا إن كانت عائدة على النار فالباء بمعنى في الظرفية، أي: فتكوى فيها.وقوله: {وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ}[التوبة:٢٠]،وقوله –تعالى–: {لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ}[التوبة:٤٤]،فالباء في (أن يجاهدوا بأموالهم) استعانة؛ إذ إنَّ الأموالَ وسيلةٌ للجهاد.وقوله –تعالى–:{إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[التوبة:٥٥]،وقوله: {وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا}[التوبة:٥٢]،فقد تكونُ آلةُ العقاب ووسيلتُه اليد.وقوله{وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ}[التوبة:٨١]، وقوله –تعالى–: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا}[التوبة:٨٥]،وقوله: {لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ}[التوبة:٨٨].

٤. العدول إلى معنى المقابلة:

وهي: "الدَّاخلةُ على الأثمانِ والأعواضِ، كقولِك: اشتريتُ الفرسَ بألف، وكافأتُ الإحسانَ بضعْف"[١].

وجاءت في سورة التوبة كما يلي:

قال –تعالى–: {اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً }[التوبة:٩]،أي: مقابلَ آياتِ اللهِ ثمناً قليلاً، ويجوزُ أنْ تكونَ بمعنى البدل، أي: بدلَ آيات الله.

وقول الله: {أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ}[التوبة:٣٨]، أي: مقابل الآخرة.

وقوله –تعالى–{إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ}[التوبة:١١١]، أي: إنَّ اللهَ اشترى أنفُسَهم مقابل أنْ يعطيَهم الجنة.

١- المصدر السابق ١٥١/٣

وقوله:{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ}[التوبة:١٢٠]، والمعنى: كُتب لهم مُقابِلَه عملٌ صالح.

٥. العدول إلى معنى المجاوزة:

وهي التي بمعنى عن،وتكون –غالباً– بعد فعل السؤال[١]، نحو قوله –تعالى– :{سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}[المعارج:١]،أي: عن عذاب واقع.

وممَّا جاء من ذلك في سورة التوبة:

قوله –تعالى–: {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم} [التوبة:٦٤]، بمعنى: عمَّا في قلوبهم.

وقوله –تعالى–: {ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون}[التوبة:٩٤]،

وقوله: {وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون}[التوبة:١٠٥] أي: عمَّا كنتم تعملون.

٦. العدول إلى معنى المصاحبة:

قال ابن عاشور: "...لأنَّ بَاءَ التَّعْدِيَةِ جَاءَتْ مِنْ بَاءِ الْمُصَاحَبَةِ عَلَى مَا بَيَّنَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ النُّحَاةِ أَنَّ أَصْلَ قَوْلِكَ: ذَهَبْتُ بِزَيْدٍ، أَنَّكَ ذَهَبْتَ مُصَاحِبًا لَهُ، فَأَنْتَ أَذْهَبْتَهُ مَعَكَ، ثُمَّ تُنُوسِيَ مَعْنَى الْمُصَاحَبَةِ"[٢].

ولهذه الباء علامتان، وهما:

صلاحيَّةُ مجيءِ (مع) مكانها، وإمكانيَّةُ مجيءِ الحال مكان الباء ومدخولها[٣]. ولها مثال مشهور في القرآن، وهو قوله –تعالى–: {قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ} [النساء: ١٧٠]،أي: مع الحق، أو محقاً.

وجاءت في سورة التوبة كالآتي:

قوله –تعالى–: {أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ}[التوبة:٧٠]،أي: مع البينات، أو مُبيِّنة.

١– الجنى الداني، للمرادي، صـــ٤١

٢– التحرير والتنوير ٩/٢٢

٣– الجنى الداني، للمرادي، صـــ٤٤

وقوله:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ}[التوبة:٣٤]، أي: باطلاً.

وقوله –تعالى–: {حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ} [التوبة:١١٨]،أي: مع رحبها، أو وهي رحيبة.

وقوله –تعالى–: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ}[التوبة:١٠٩]، أي: فانهارَ هو معه في نارِ جهنَّم.

٧. مجيئها زائدة لغرض التوكيد:

وجاءت في قوله –تعالى–: {رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ}[التوبة:٨٧].

الباء زائدة متصلة بالمفعول به، وهو المصدر المؤول من أن والفعل المضارع.

وعلى الرغم من كثرة زيادة الباء مع المفعول به في العربية إلا أنَّها زيادةٌ سماعيةٌ وغيرُ مقيسة[١].

٤– في:

ولها معنىً أصليٌّ يُفيدُ الظرفية، ولم يُثبتْ البصريُّون غيرَه[٢]. وقد تخرجُ إلى معانٍ أخرى، وهي: المُصاحَبة، كقوله–تعالى–: {قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ} [الأعراف:٣٨]،أي: مع أمم. والتعليل كقوله –تعالى–: {لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيم} [النور:١٤]، أي: لما أفضتم فيه، أو بسبب ما أفضتم فيه. والمُقايسة، كقوله –تعالى–:{فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيل}[التوبة:٣٨].ومعنى على كقوله –تعالى–: {وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه:٧١]، أي: عليها. ومعنى الباء، كقول زيد الخيل الطائي:

وتركبُ يومَ الروعِ فيها فوارسٌ بَصيْرون في طَعْنِ الأباهِرِ والكُلى[٣]

أي: بطعن الأباهر والكلى.

ومعنى إلى كقوله –تعالى–: {بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ}[إبراهيم:٩]،أي: إلى أفواههم.

١– الجنى الداني، للمرادي، صـــ٥١

٢– المصدر السابق، صـــ٢٥٠

٣– خزانة الأدب، للبغدادي ٢٥٤/٦

ومعنى من، كقول امرئ القيس:

وهل يَعِمَنْ من كان أحدثُ عهدِه ثلاثين شهراً، في ثلاثةِ أحوالِ؟[1]

والزيادة، كقوله –تعالى–: {وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا}[هود:٤١]، أي: اركبوها.

وخرجت (في) عن معناها الأصلي في سورة التوبة كما يلي:

١. مجيئها بمعنى من:

قال –تعالى–: {يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}[التوبة:٤٧]

(فيكم) قد تكون على أصلها بمعنى الظرفية المكانية، ويجوز أن تكون بمعنى (مِن)، قال أبو حيان: "وَمَعْنَى وَفِيكُمْ فِي خِلَالِكُمْ مِنْهُمْ، أَوْ مِنْكُمْ مِمَّنْ قَرُبَ عَهْدُهُ بِالْإِسْلَامِ"[2]. ورأى ابنُ عاشور أنّها على أصلها بمعنى الظرفية؛لأنَّ السَّمَّاعين على فريقين، فريقٌ من المؤمنين، وفريقٌ من المنافقين المتخفين بين المؤمنين، فلو قال: منكم سماعون لهم، لدلَّ ذلك على فريق المؤمنين –فقط–؛ ولذلك عبَّر عنهم بالظرفية لدلالتها على الفريقين.[3]

وقال –تعالى–: {وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[التوبة:١٢٣]

يرى الطبري بأن (في) في قوله: فيكم غلظة، بمعنى (من)، أي: منكم غلظة[4].

٢. مجيئها بمعنى المصاحبة:

في قوله –تعالى–: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً}[التوبة:٤٧].

(لو خرجوا فيكم)، أي: معكم، وقد تكون في على أصلها، أي: في جيشكم وفي جمعكم[5].

٣. مجيئها بمعنى المقايسة:

قال –تعالى–:{فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ}[التوبة:٣٨]

(في الآخرة)خرجت(في) عن معناها المفيد للظرفية إلى معنى (مِن المُقايسة)، ومِن المقايسة هي :"الداخلةُ على تالٍ، يُقصَدُ تعظيمُه وتحقيرُ متلوِّه"[1]، أي: أن ما بعدها أعظم وأشرف مما قبلها.

١– ديوان امرئ القيس، صـــ١٢٣

٢– البحر المحيط ٤٣٠/٥

٣– التحرير والتنوير ٢١٨/١٠

٤– جامع البيان في تأويل القرآن ٥٧٦/٤١

٥– الدر المصون، للحلبي ٥٩/٦

٤. مجيئها بمعنى التعليل:

قال –تعالى–: {إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُون}[التوبة:٤٥]،أي: هم مترددون لما فيهم من شك وريب.

٥. مجيئها زائدة:

وقوله –تعالى–: {سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيم}[التوبة:٩٩]

تعدى الفعل بـــ(في)، مع أنه متعدٍّ بنفسه من غير حاجة إلى واسطة؛ وذلك لبيان إحاطة الله لهم برحمته ولطفه، وقيل: إن المعنى في جنته فتكون (في) ظرفية على أصلها[٢]. ويراها الطبري بمعنى: "سيدخلهم الله فيمَنْ رَحِمَه فأدخله برحمته الجنة"[٣]، فكأن (من) بمعنى (مع) على رأيه.وذكر ابن جني في بيان المجاز في قوله –تعالى–: {وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا}[الأنبياء:٧٥]بأنه إما سعة، أو تشبيهاً، أو توكيداً،أمَّا السِّعةُ فكأنَّ الرحمةَ اسمٌ لمحلٍّ أو جهة،وأمَّا التشبيهُ فعلى أنَّه شبَّه الرحمةَ بما يجوزُ دخولها، فحَذفَ المشبَّهَ به وأتى بشيءٍ من لوازمه وهو الإدخال، وهي استعارةٌ مكنية،وأمَّا التوكيدُ فبإخبارِه عن العَرَضِ بالجوهر؛ تعالياً به وتفخيماً له[٤].

٥- عن:

ولم يُثبتْ لها البصريُّون سوى معنى المجاوزة[٥]، ومنه قولهم: رَغِبَ عنه، أي: تجاوزه برغبته. وخَرَجَت إلى معانٍ أخرى، وهي: البدل، ومنه قوله –تعالى–: {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا}[البقرة:٤٨]. والاستعلاء، والاستعانة، والتعليل، ومعنى بعد، ومنه قوله –تعالى–: {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَق} [الانشقاق:١٩]. وتأتي بمعنى في الظرفية، وقد تُزَادُ عِوضاً، كما في قول الشاعر:

أتجزعُإنْ نفسٌ أتاها حِمَامُها فهلَّا التي عن بينِ جَنبَيْك تدفعُ[٦]

١- الجنى الداني، للمرادي ٢٥١/١

٢- تفسير مقاتل بن سليمان ١٩٢/٢

٣- تفسير الطبري ٤٣٤/١٤

٤- الخصائص ٤٤٥/٢

٥- الجنى الداني، للمرادي، صـــ٢٤٥

٦- خزانة الأدب ١٤٤/١٠

قال ابن جني: "أراد: فهلا عن التي بين جنبيك تدفع، فحذف عن وزادها بعد التي عِوَضاً، وتبعه ابن مالك في هذا"[1].

وممَّا خرجت فيه (عن) عن معناها الأصلي في سورة التوبة ما يلي:

١. خروجها إلى معنى من:

{أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ}[التوبة:١٠٤]

يَحتَملُ معنى الآيةِ تعديةَ فعلِ التوبةِ بـــ(عن) و(من)، فيكونُ على الأول بمعنى التجاوز عن ذنوبِهم التي تابوا عنها، وعلى الثاني بمعنى قبول التَّوبةِ الصَّادرةِ ابتداءً منهم.

٢. مجيئها بمعنى التعليل:

قوله –تعالى–:{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ }[التوبة:١١٤]

أي: لموعدةٍ وعدها إياه.

٣. خروجها إلى معنى الزيادة:

قوله –تعالى–: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا}[التوبة:٢٥]

أي: لم تغنكم شيئاً.

٦– على:

وله معنى أصليٌّ هو الاستعلاء، ولم يُثبِتُ أكثرُ البصريين غيرَه[2]. وخَرَجَ إلى عِدَّةِ معانٍ أُخرى، تتمثَّلُ في المصاحبة، والمجاوزة، ومعنى في، ومِنْ، والباء، وإلى، والزيادة للتعويض، وخرج إلى معنى الباء في قوله –تعالى–: {وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ}[التوبة:٢٥]، فرأى أبو حيان بأنَّ(على) –هنا– بمعنى الباء فقال: " أي ضاقت بكم الأرضُ مع كونِها رحباً واسعةً؛ لشدَّةِ الحالِ عليهم وصعوبتِها ،كأنَّهم لا يجدون مكاناً يستصلحونُه للهربِ والنَّجاةِ؛ لفَرْطِ ما لحقِهم مِن الرعب، فكأنَّها ضاقت عليهم"[3].

١– الجنى الداني، للمرادي، صـــ٢٤٨

٢– الجنى الداني، للمرادي، صـــ٤٧٦

٣– البحر المحيط، لأبي حيان ٣٩٣/٥

وقوله –تعالى–:{إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء}[التوبة:٩٣]
الأصل: (إلى الذين) ولكن عدل عن (إلى) إلى (على)؛ لما فيها من معنى الاستعلاءِ، وقلَّةِ منعةِ من تدخلُ عليه[١].

٧- اللام:

ولها معنى أصليٌّ واحدٌ وهو الاختصاص. وأثبَت النحاةُ لها معانيَ أُخَر أُوِّلت بهذا المعنى، وهي: التملك وشبهه، والتعليل، والتبيين، والقسم، والتعدية، والصيرورة، والتعجب، والتبليغ، ومعنى في الظرفية، وإلى لانتهاء الغاية، وعن المجاوزة، ولام التعليل، والقسم، وعلى الاستعلائية، وعند، وبعد، ومع، والتبعيض، وتقوية العامل.

وجاءت في سورة التوبة لغرض تقوية العامل في قوله –تعالى–: {وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ}[التوبة:١١٢]

الفعل (حفظ) متعدٍّ بنفسه، إلا أنَّ اسمَ الفاعلِ منه ضعيف؛ لأنَّه فرعٌ عنه في العمل؛ فلَزِمَ تقويتُه بحرفِ جرٍّ يتعدَّى من خلالِه إلى معمولِه.

١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية ٧١/٣